

دلائل الفضاء والزمان في قصة

"حفنة تمر" للطيب صالح

مصطفى ولد يوسف

المركز الجامعي (اليوبيره)

تمهيد :

تجمع القصة القصيرة بينتين هما: البنية التصويرية المفترضة بالفضاء والبنية الخبرية المرتبطة بالزمان^١، فيكون المزج بينهما لتأسيس فعل السرد. وقصة "حفنة تمر" للكاتب السوداني "الطيب صالح" تحمل تحديدا زمانياً ومكانياً للصورة والخبر اللذين لا يفزان عند السياق التاريخي والجغرافي، وإنما يخفيان دلالات، حاولنا تكشفها بإجراء بنوي في هذا الع قال.

1 - دلائل الفضاء في قصة

نعني بالفضاء الحيز المكاني في القصة، ويطلق عليه عادة الفضاء الجغرافي ⁽²⁾. وهذا التعريف يجرنا إلى أن المقصود هو المكان أو الموقع الجغرافي. وقد قدم الفاصل مجموعة من الإشارات الوصفية في منظومته النصية، أفضت بنا إلى تشكيل صورة تخيلية عن الريف السوداني، ومعالمه من شساعة، وحفلو غابات وأشجار الطاح والتخييل ونهر النيل تؤسس "اديولوجيم" العصر Idiologéme كما تسميه جوليا كريستيفا، حيث سيدة الغرف وقدسيّة النمطية الفكرية السائدة في الريف ويمثلها الجد.

وهذا الفضاء الجغرافي يأخذ بعده دلاليات Espace sémantique، فلم يعد مجرد إطار تنطلق منه الأحداث، بل أصبح طرفاً معادياً أو مسانداً في الخطاب السردي، وينتجي ذلك في العناصر التالية:

أ - لدى الجد :

الحقل: عنصر قوة، يمارس عبره فعل الأذى والسلط: "انظر إلى هذا الحقل الواسع... ثلثاه الآن لي أنا" ⁽³⁾.

ب - لدى الحفيد :

النهر: فضاء مفتوح ومساند له "...نعم كنت أحب النهر" ⁽⁴⁾ يلجا إليه الحفيد في حالات الانقضاض: "...أسرعت العدو... ووصلت إلى حافة النهر.... أدخلت أصبعي... وتنقيات التمر الذي أكلت" ⁽⁵⁾

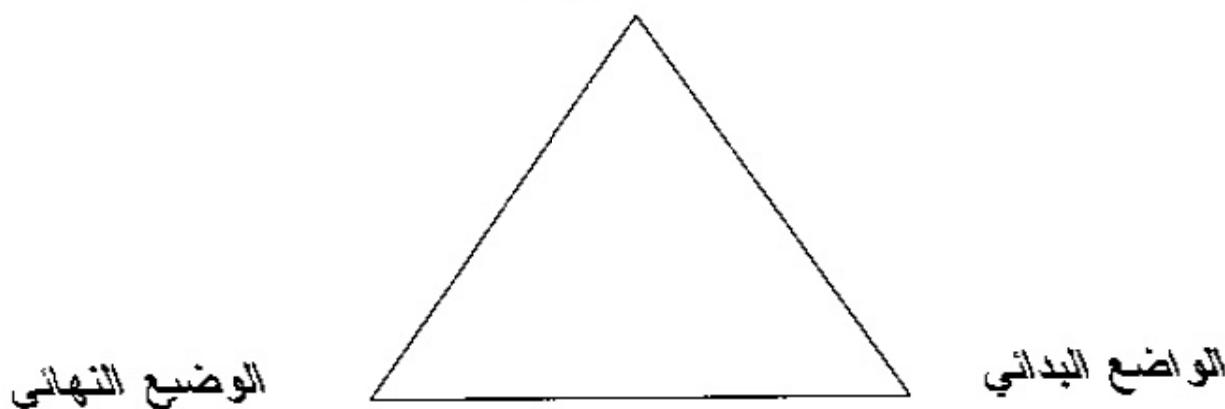
وقعت في الحقل الإساءة وأدرك الحفيد أن جده قاس في معاملاته لمسعود الذي كاد طوال اليوم دون أن يأخذ حصة من جني التمر: "قال جدي لمسعود: "مازلت مدينا لي خمسين جنيهاً نتحدث عنها فيما بعد" ⁽⁶⁾

تنعدم الحيادية في دلائل الفضاء في القصة، فالحقل فضاء مغلق، يحمل رؤية وقيمة رمزية وإيديولوجية مجسدة في الجد الإقطاعي الذي اتضح عالمه لدى حفيده، فكسر وذَّ هذا الأخير. والنهر فضاء مفتوح على احتمالات التغيير والانتفاضة على الأوضاع السائدة، وانكشف المسكون عنه: "...وصلت إلى حافة النهر ولست أعرف السبب، ولكنني أدخلت أصبعي في حلقي وتنقيات التمر الذي أكلت" ⁽⁷⁾.

ان دخول الأصبع في الحق علامة حسية على إحداث القطعية بين رؤية شاهدة على الاستغلال ورؤية مشهودة بالاستغلال، فتحولت العلاقة بين الجد والحفيد من علاقة تالفية الى علاقة تنازفية بعد وقوع الإساءة، وحضور الصدمة المتباينة بالقطعية: ... أحسست بالتم حاد في صدرِي... وشعرت أنني أكره جدي ...^(٨)

و في هذه الترسيمية يتضح ذلك كله :

الصدمة بعد وقوع الإساءة



- 2 - دلائل الزمان في القصة

أيجابي → ← سلبي

يدرك الكل أن الزمن هو الذي يعطي للعمل الإبداعي بعده الواقعى بالنظر إلى الشخصيات الورقية غير الكائنية، لأنها مجرد دلالات تقوم بالوظائف الحياتية في إطار زمني معلوم.^(٩)

تقوم المادة الفصصية على لفظة "أنكر" لتكشف ما ضوية الأحداث المشكلة للإخراج السردي للقصة، فغلب الحكي الوصفي، أي الأسلوب الوصفي المباشر، مع محاولة تفسير ما يدور حول ذات الحفيد من موقف، إضافة إلى استحضار شعوره وتلخيصه في جمل معبرة عن رؤيته البعيدة في عهد طفولته: "أنكر" أن الناس كانوا... ولم يكونوا... العجيب أنني لم أكن... لكن جدي كان... كنت اذهب إلى المسجد... هذه كانت معالم حياتنا^(١٠). وفي مقطع آخر يقول: شعرت بالعطف على جارنا مسعود... شعرت أنني أكره جدي....^(١١).

إن القصة لها امتداد عبر ماضي البطل الصغير عن طريق الفعل "أنكر" في المطلع السردي، فهذا الزمن ملك له، بحكم أنه داخلي ذاتي. وقد عمد السارد إلى هذه التقنية ليدفعنا إلى تصديقه، واعتبار الماضي مصدر قهر لا مصدر خير، فقد خرج الفاصل على كثير

من المبدعين العرب الذين جعلوا من الزمن الماضي ملاداً، وملجاً، هرباً من الحاضر المغيب للأمال، فهو يعتبر المستقبل ورقة رابحة، وبيّق فيه، ويراه المنفذ من الترببات الموضوعة والشعارات المفلسة، لأنها ترتكز على أعراف إقطاعية بالية تعق النطور الاجتماعي.

لقد كان زمن الطفولة - في أغلب الأحيان - رمز سعادة الأمس، لأنه يفتقر إلى الوعي اللازم لفهم العالم الخارجي وتبنته، والسارد أكسب لزمن طفولته الوعي، فزال سحره، وروعته، محدثاً شرخاً رهيباً بين الآنا وموضوعها، وهذا الدور الجديد الذي يلعبه زمن طفولته شاذ، وغير مؤسس، ولكنه قابل للتأنيل والتشريح.

أ. زمن الطفولة المفترض ← ماض صوري: "لابد أنني كنت صغيراً جداً"

ب. زمن مسعود المقهور. ← الحاضر المستمر

ج. زمن الجد الإقطاعي المتحول ← ماض بائد متعدد

إن الزمن في النص المسرود متفرع إلى مستويات زمنية متباينة هي:

لا يشمل الماضي الحقيقي زمن مسعود، وإنما الصوري منه، لأن القاص لا يحكم الماضي الإقطاعي للسودان، ولكن الحاضر بكل أبعاده السياسية، الاجتماعية والاقتصادية، فالخطاب المنقول إلينا إعلان عن ميلاد إقطاعية جديدة، هذه المرة متحالفة مع الخارج، لا تومن بالعدالة الاجتماعية، استغلالية ومتواطئة مع العرف البالي الذي يحرص على تسييد المستقل حتى لو كان على ضلاله.

إن الخطاب المرادي يحمل ثنائية زمانية ضدية في الجوهر مفتوحة على فرائتنى

هما:

- القراءة الأفقية: طفل صغير، محظوظ، مغزور، وجده ذو نفوذ في مجتمع ريفي هادئ، يدعى الحكم والوقار.

- القراءة العمودية أو الشاقولية: رفض كل أشكال التسييد والوقف في وجه الإقطاعيين الجدد المتواطئين مع الرأسمالية المتوجهة: "...ورأيتم بتقاسمونه: حسن التاجر أخذ عشرة أكياس، والرجلان الغربيان كل منهما أخذ خمسة أكياس وموسى صاحب الحقل... أخذ خمسة أكياس، وجدي أخذ خمسة أكياس. ولم أفهم شيئاً".⁽¹²⁾

لقد اتخذت القصة من الزمن عنصرها الجوهرى، فتلانت حدود الأزمنة، ليستقر في الحاضر المفتوح على الافتتاح. المفضوح الذي يعيد الماضي البائد إلى الواجهة بأقمعة متعددة، الذي يهدد المستقبل القريب والبعيد على حد سواء.

- زمن الطفولة المفترض ← حاضر القاص الحقيقي
- زمن المستقبل المفترض ← ماضي القاص الحقيقي

لم يقدم السارد حلولاً للخطر الداهم، وإنما اكتفى بتقديم نشوئات الماضي التي لحقت بحاضره، وإحساسه بالغربة والوحدة، والإحباط، والمطاردة من قبل الماضي المفزع عذوت مبتعداً، وشعرت أكره جدي وأسرعت العدو كائني أحمل في داخل صدري سرا أو أود أخلص منه: (13)

تدور أحداث القصة حول زمن المؤلف الذي عرف فهو نهوض الشعوب العربية، ومنها الشعب السوداني كرجل واحد في وجه الاستعمار، والتخلص منه، فكان لاسترجاع السيادة الوطنية الحافز المعنوي في رفع التحدي، وتأسيس الدولة الوطنية الحديثة، فتنوعت التجارب، التي باعثت بالفشل الذريع بسبب مصادر الحق الشعبي.

لقد عاش المؤلف في زمن أحداث قصته، لكنه لم يتعامل معه كتعامل كاتب المسرة الذاتية، بل كتعامل القاص مع عالمه المتخيل، فهو بذلك زمن افتراضي يرتكز على الماضي الريفي للمؤلف، وحاضره البائس الذي لا يبشر بالخير إطلاقاً.

الواضح أن السارد يؤمن بالزمن المكرر، لأن عجلة التغيير لم تكن في طريقها الصحيح، وكان بالماضي يستنسخ نفسه عبر خطاب مأثور، وعقلية إقطاعية واستغلالية، بعثت من جديد في ظل التخلف الشامل الذي لا يدع المجال للقطيعة المنشودة بين ماض بال، حامل لخطاب اليأس والطريقية، وحاضر تركيته طبق الأصل للماضي، لم يأت بالطفرة التي طالما حلم بها أكثر الناس في الوطن العربي عامه، وفي السودان وخاصة.

ماضي ← حاضر ← المستقبل
ماضي ← حاضر ← ماضي

إن الماضي هو الزمن الأوحد كر نفسه إلى ملا نهائية.

حالات:

- 1 - ينظر: عبد الرحيم الكردي، البنية السردية لقصة القصيرة، مكتبة الأدب، القاهرة، مصر، ط 3، 2005، ص 161.
- 2 - ينظر: حميد لحمданى، بنية النص السردى، المركز الثقافى العربى، المغرب، ط 3، 2000، ص 53.
- 3 - الطيب صالح، *حفلة تمر* من مجموعته *القصصية* : دومه ودحامد، دار العودة، بيروت، لبنان، ط 4 و 1980، ص 21.
- 4 - الطيب صالح، *حفلة تمر*، ص 19.
- 5 - المصدر نفسه، ص 25.
- 6 - نفسه، ص 25
- 7 - نفسه، ص 25
- 8 - م. ن، ص 25
- 9 - ينظر: إبراهيم صهراوي، *تحليل الخطاب الأدبي*، دار الأفاق، الجزائر، ط 1، 1999، ص 101.
- 10 - الطيب صالح، *حفلة تمر*، ص 19.
- 11 - المصدر نفسه، ص 25.
- 12 - م.ن، ص 25.
- 13 - م.ن، ص 25.